

المحاضرة الثالثة عشر

الأهداف :

اطلاع الطالب على الدويلات المستقلة المتنافسة على عرش الدولة الموحدية (الحفصيون ، الزيانيون ، المرينيون) ومعرفة خصوصية المرحلة إلى غاية أفول نجمهم ودخول بلاد المغرب (عدا المغرب الأقصى) تحت مظلة الخلافة العثمانية .

المغرب على عهد الدويلات المستقلة (عهد الدويلات المستقلة الثالث)
المغرب بعد الموحدين :

بعد وقعة حصن العقاب سنة 609 هـ دب الضعف والانهيار في دولة الموحدين ولم يتمكن خلفاؤها من الحفاظ على وحدتها الجغرافية إذ انفصل عنهم الحفصيون بالمغرب الأدنى واستقل الزيانيون بالمغرب الأوسط واستقل بنو نصر (بنو الأحمر) بغرناطة ، ليُريث فيما بعد المرينيون عرش الموحدين في المغرب الأقصى .
أولا : الدولة الحفصية :

ينتسب الحفصيون إلى الشيخ أبي حفص يحيى بن عمرو الهنتاتي الذي كانت له مكانة مرموقة في البلاط الموحي وكان لأولاده من بعده نفس المكانة . ويعتبر أبوزكريا يحيى الحفصي المؤسس الحقيقي لدولة الحفصيين¹ بتونس الذي استقل بها سنة 625 هـ بعد أن عزل أخاه أبا محمد عبد الله ابن أبي محمد بن أبي حفص .

¹ عن أخبار دولة الحفصيين انظر كذلك عبد الرحمن ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 6 ، ص 370 وما بعدها .

وكان سبب استقلال الأمير أبي زكريا الحفصي ما قام بها المأمون الموحد

من قتل للموحدين خاصة من قبيلة هنتاتة ، ثم توسع في سلطانه ليضم أقاليم أخرى مثل بجاية وقسنطينة ، وعن ذلك يقول ابن خلدون : >> لما استقل الأمير أبو زكريا بالأمر بتونس و خلع بني عبد المؤمن ، نهض إلى قسنطينة سنة ست وعشرين وستمائة (626 هـ) فنزل بساحتها و حاصرها أياما ، ثم داخله ابن علناس في شأنها و أمكنه من غزتها فدخلها و تقبض على واليها السيد ابن السيد أبي عبد الله الخرصاني بن يوسف العشري ، وولّى عليها ابن النعمان ، ورحل إلى بجاية فافتتحها و تقبّض على واليها السيد أبي عمران ابن السيد أبي عبد الله الخرصاني و صيّرهما معتقلين في البحر إلى المهديّة >>² .

لقد حكمت دولة الحفصيين³ ما يربو عن الثلاثة قرون ونصف ، وقد بايع أهل شرق الأندلس واشبيلية والمرية الحفصيين في تونس وبعث إليهم الأقوات والأسلحة⁴ كما بايعت حواضر أخرى الحفصيين مثل سبتة وطنجة واشبيلية والمرية وسجلماسة وتلمسان⁵ .

وعن مبايعة الأندلسيين لدولة الحفصيين يورد الزركشي قوله : >> وبايع أهل بلنسية المولى أبا زكرياء صاحب تونس في رابع المحرم عام ستة وثلاثين وستمائة (636 هـ) بعد أن كانت وقعة كبيرة ، قُتل فيها الحافظ أبو الربيع ابن سالم وغيره ... ودنا العدو منها وضيّق عليها فاضطر صاحبها زيان ابن مردنيش إلى الاستغاثة بالمولى أبي زكرياء ، فوجه إليه بيعته مع رجال من أهل دولته ، فهم كاتبه الفقيه الشهير أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر ابن البار القضاعي ، فوصلوا إلى

² عبد الرحمن ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 6 ، ص ص 381 - 382 .

³ للاستزادة عن أخبار الحكام الحفصيين وأعمالهم انظر : الزركشي : المصدر السابق ، ص 23 وما بعدها .

⁴ عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ص 875 - 876 .

⁵ عبد الرحمن ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 6 ، ص ص 390 ، 392 ، 394 ، 395 ، 396 .

تونس ، وانشد ابن الابار بين يدي المولى أبي زكرياء في يوم الثلاثاء منسلخ شهر رجب من عام ستة وثلاثين المذكور قصيدته المشهورة التي أولها :

أدرك بخيلك خيل الله أنـدلسا ... إن السبيل إلى مناجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمسست ... فلم يزل منك عن النصر ملتمسا
إلى آخرها ⁶ ، وهي ستة وستون بيتا ، فعاجلهم المولى أبو زكرياء في الوقت بما
أمكنته المبادرة من طعام وأنعام ... واغتبط ابن الابار بافريقية وعاد إلى الأندلس <<

7

لقد شكل الأندلسيون احد أهم صنوف التركيبة الديمغرافية الحفصية خاصة في عهد أبي عبد الله المستنصر وكان مع أعظم الأمراء الحفصيين وانشأ قصر الطابية وحدائقه الرائعة ، كما بنى المستنصر الحفصي مسجد باب الدرب بالمنستير وتطورت العلاقات التجارية مع ضفة المتوسط .

وعن انجازات هذا الحاكم يفصل ابن خلدون بقوله : << فمنا شروعه في اختطاط المصانع الملوكية وأولها المصيد بناحية بنزرت . اتخذه للصيد سنة خمسين وستمائة ... فكان ذلك من أفخم ما عمل في مثلها ثم وصل ما بين قصوره ورياض رأس الطائبة ⁸ بحائطين ممتدين يجوزان عرض العشرة أذرع أو نحوها طريقا سالكا ما بينهما ، وعلى ارتفاع عشرة أذرع يحتجب به الحرم في خروجهن إلى تلك البساتين عن ارتفاع العيون عليهن ، فكان ذلك مصنعا فخما وأثرا على أيام الدولة خالداً ، ثم بنى بعد ذلك الصرح العالي بفناء داره ... وهذا الصرح هو إيوان مرتفع السماك متباعد الأقطار متسع الأرجاء يشرع منه إلى الغرب وجانبه ثلاثة

⁶ تكملة القصيدة موجودة عند عبد الرحمن ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 6 ، ص ص 386 - 388 .

⁷ الزركشي : المصدر السابق ، ص ص 27 - 28 .

⁸ وفي نسخة أخرى الطالبية ، وفي النسخة الباريسية الطابية . عبد الرحمن ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 6 ، ص 404 ، هامش 1 .

أبواب ، لكل باب منها مصرعان من خشب مؤلف الصنعة ، ينوء كل مصراع منها في فتحه و غلقه بالعصبة أولي القوة ... و اتخذ أيضا بخارج حضرته البستان الطائر الذكر المعروف بأبي فِهر ، يشتمل على جنات معروشات و غير معروشات ، إغترس فيها من شجرة كل فاكهة من أصناف التين و الزيتون و الرمان و النخيل و الأعناب و سائر الفواكه و أصناف الشجر... إلى ما اشتملت عليه هذه الرياض من المقاصير و الأواوين⁹ و الحوائز¹⁰ و القصور و غرفا من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار ، و تأنق في مبانيه هذه و إستبلغ و عدل عن مصانع سلفه و رياضهم إلى متزهاته من هذه ، فبلغ فيها الغاية في الاحتفال و طارلها ذكر في الآفاق << ¹¹ .

لكن في أواخر عهد المستنصر الحفصي ظهرت الفتن و توفي سنة 675 هـ ، و من أشهر حكامها الآخرين أبو حفص ، أبو يحيى بن اللحياني ، أبو إسحاق إبراهيم¹² ، و عموما بدأت دولة الحفصيين تضعف و خرجت بجاية عن طاعتهم كما استولى بنو مرين على تونس في عهد أبي عنان المريني كما ظهرت دويلات صغيرة مثل بني يملول في توزر و بني مكي في قابس و بني ثابت في طرابلس ، و قد استعادت الدولة الحفصية عافيتها و تصدت للنصارى الذين هاجموا المهديّة سنة 1390 م في عهد أبي العباس كما هاجم ابنه أبو فارس مالطة و استولى على تلمسان و قضى علة الدويلات السابقة و استولى على الجزائر و جاءته السفارات من غرناطة فاس مصر و هو دليل قوته و توفي في 1434 م و خلفه ابنه المستنصر وكان مريضا فمات في وقت قصير (14 شهر) فخلفه أخوه أبو عمر و ظهرت الفتن و الثورات ثم قضى عليها و بعد

⁹ المقاصير مفردها مقصورة وهي الدار والواسعة المحصنة ، والأواوين مفردها إيوان وهو الدار الشامخة المكشوفة الوجه .

¹⁰ الحوائز ربما المقصود منها الحوز ، وحوز الدار وحيزها ما انضم إليها من المرافق والمنافع .

ابن منظور : المصدر السابق ، ص 1047 .

¹¹ عبد الرحمن ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 6 ، ص ص 403 - 405 .

¹² الزركشي : المصدر السابق ، ص ص 60 ، 92 .

وفاته دخلت تونس في فوضى فقد انتفضت القبائل وهاجم الأسبان السواحل التونسية انتقاما من الأتراك الذين استولوا على تونس فيما بعد.¹³

ثانيا : الدولة الزيانية (دولة بني عبد الواد) :

كان بنو عبد الواد من القبائل الرُّحل¹⁴ ، ثم استقروا وكوّنوا دولة دامت ثلاثة قرون وعاصمتها تلمسان ، ولعب يغمراسن بن زيان دورا هاما في تأسيس هذه الدولة ، فقد عينه الموحدون عاملا على تلمسان سنة 624 هـ¹⁵ وبعد سقوط دولة الموحدين استقل بحكم البلاد ، وقد امتدحه يحي ابن خلدون صاحب كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد بقوله : << بارع الثنية ، وعاطف الحنية ، المستأثرون الملوك بالخلال السنية ، مظهر الريع والريعان ، مقيم حفلي الطعم والطعان ، خليفة الله المرتضى ، وسيف حمايته المنتضى ، ووعد أمينه الصادق المقتضى ، منير الأحلاك وناظم الأسلاك ، وملك الشرفاء وشريف الأملاك ، ابن علا ومجد وعلم وكمال في نجد ومكيف عناية وجد ، طلع سعد أخبيته المسخر ، وقد بدا فرع الدولة المؤمنية المؤخر ، ... والأرض يومئذ تموج بالساكن والهرج ينبو بالمساكن ، والفساد عمر الأقطار... فسكّن الإرجاف >>¹⁶ .

كانت هذه الدولة واقعة بين الحفصيين من جهة الشرق والمرينيين من جهة الغرب ، لذلك عانت من ضغط الجهتين فأصبحت بعض المناطق تحت وصاية

¹³ عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ص 878-879 .

¹⁴ للاستزادة عن أخبار هذه القبيلة : انظر : أبو زكرياء يحي ابن خلدون : بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، مطبعة ببيير فونطانا الشرقية ، الجزائر ، 1903 ، مج 1 ، ص 94 وما بعدها .

¹⁵ مجموعة مؤلفين : الجزائر في التاريخ ، ص 359 .

¹⁶ يحي ابن خلدون : المصدر السابق ، مج 1 ، ص ص 109-110 .

بني حفص ، كما حاول المرينيون احتلال تلمسان وحاصروها ونجحوا في ذلك ، حيث تحرك السلطان أبو الحسن المريني لمنازلة تلمسان وكان يومها حاكم الزيانيين الأمير أبي تاشفين عبد الرحمان ، ، وقد ضيق المرينيون الحصار على تلمسان ونصب حولها المجانيق وخلصها عنوة واستولى على الأموال والحرم ثم قُتل الأمير ابن أبي تاشفين في هذا الغزو سنة 737 هـ¹⁷

استعاد الزيانيون عاصمتهم تلمسان ، غير أن المرينيين استعادوها من جديد سنة 753 هـ ، واستعادها الزيانيون سنة 761 هـ ، وتولى الإمارة أبو حمو علي بن أبي زيان فازدهرت تلمسان وبنيت المدارس والقصور لكن الفوضى عادت من جديد أواخر القرن التاسع الهجري فغزا الحفصيون تلمسان سنة 870 هـ وتهدمت أسوارها وبعدها بدأت الهجمات الاسبانية التي كانت امتدادا لحركة الاسترداد المسيحي ، واحتل الأسبان عدة مدن ساحلية مثل بجاية 910 هـ وهران 914 هـ ثم الجزائر مما اضطر الأهالي إلى الاستنجاد بالإخوة ببروسة العثمانيين الذين قدموا وحرروا كثيرا من المناطق وتم القضاء على الحكم الزياني سنة 1554 م.¹⁸

ثالثا : الدولة المرينية :

كان تعلق بنومرين¹⁹ على المغرب الأقصى بعد تهاوي الملك الموحي عقب وقعة حصن العقاب سنة 609 هـ حيث انهزم الخليفة الناصر وهلك الجمهور

¹⁷ ابن الأحمر: تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان ، تحقيق : هاني سلامة ، ط 1 ، مكتبة الثقافة الدينية ، بور سعيد (مصر) ، 2001 ، ص 73 . ويصف ابن الأحمر في الصفحة الموالية الأمير ابن تاشفين بقوله : >> وكان أبو تاشفين لثيما بخيلا ، مسيكا شديد الشح ... كان قد حجر على سائر الحضريين جميع الأقوات الخضارى (أي الخضري) ولا يبتاعها إلا هو << .

¹⁸ عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ص 872 - 875 .

¹⁹ عن أخبار من حكم دولة المرينيين انظر: النويري : المصدر السابق ، ج 24 ، ص ص 192 - 193 : مجهول : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، ص 171 وما بعدها : ابن أبي زرع الفاسي : روض القرطاس ، ص 297 وما بعدها ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص 20

من حامية المغرب ورعاياه حتى خلت البلاد من أهلها²⁰ ، ليتمكن بعدها السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق من دخول مراكش سنة 668 هـ ، بعد أن استولى على ملك الموحدين واجتث شجرتهم وورث سلطانهم ، وبعد أن أتته البيعة من أهلها ، انتقل إلى مدينة فاس وصيّر لها دار الخلافة ومقر الإمارة .
ويتصل نسب السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق بقبيلة زناتة²¹

، ويمتدح السلاوي صاحب الاستقصا هذا السلطان بقوله : >> هذا السلطان جليل القدر عظيم الشأن وهو سيد بني مرين على الإطلاق ، وستسمع من أخباره الحسنة ما يستغرق الوصف ويستوقف السمع والطرف ... وكانت أمه واسمها أم اليمن بنت علي البطوي رأت وهي بكر كان القمر خرج من قلبها ، حتى صعد إلى السماء وأشرق نوره على الأرض ، فقصت رؤياها على أبيها فسار إلى الشيخ الصالح أبي عثمان الوريكلي فقصّها عليه فقال : إن صدقت رؤياها فستلد ملكا عظيما فكان ذلك <<²² .

لعب بنو مرين دورا هاما في مساعدة بني نصر في الأندلس حيث جاز أبو يوسف بنفسه إلى الأندلس لمجاهدة النصارى هناك ، فكان الجواز الأول سنة 674 هـ ، وفي ذات السنة بنى أبو يوسف يعقوب مدينة لصيقة بفاس اسمها المدينة البيضاء وجعلها مقرا لسلطته ، ناهيك عن قتله لليهود بفاس ، وجاز هذا السلطان

وما بعدها ؛ ابن أبي زرع الفاسي : الذخيرة السنية في أخبار الدولة المرينية ، تحقيق : محمد بن أبي شنب ، مطبعة جول كربونل ، الجزائر ، 1339 هـ .

²⁰ السلاوي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص 4 .

²¹ مجهول : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، ص 171 .

²² السلاوي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص 20 .

مرة أخرى سنة 676 هـ إلى الأندلس قاصدا مدينة اشبيلية وغزا فيها كثيرا²³ ، وجاز مرة ثالثة سنة 681 هـ لملاقة صاحب قشتالة ، كما بنى سور البنية بالجزيرة الخضراء ، أما الجواز الرابع للأندلس فكان رفقة ولديه أبو يعقوب وأبوزيان مندبل سنة 684 هـ وتمكنوا من حصار مدينة شريش مدة أربعة أشهر وفيها مرض وتوفي في الجزيرة الخضراء سنة 686 هـ²⁴ ، غير أن ابن أبي زرع والسلوي قالا بوفاته في سنة 685 هـ²⁵ .

بُوع ابنه أبو يعقوب يوسف وجرى على سيرة أبيه في الجهاد والعدل في الرعية ، وقد وزع الأموال على القبائل والأجناد ، وأحسن إلى الفقهاء والصلحاء ، واخرج الصدقات إلى الضعفاء ، وسرّح السجناء في جميع البلاد ، وتصديق على الناس ، وكفّ أيدي الظلمة والعمال على الناس ، وأزال المكوس ، وامن الطرقات فخضعت مدين تحت قهره وصلح أمر الناس في أيامه وجاز إلى الأندلس عدة مرات كما غزا تلمسان²⁶ ، وقد توفي سنة 706 هـ²⁷ ، فخلفه أبو ثابت عامر الذي بنى مدينة تطاوين ، وفي سلطنة أبي سعيد عثمان بن يعقوب استولى بنو مدين على المغرب الأوسط واستولى على تلمسان سنة 714 هـ كما جاز إلى الأندلس مُلبياً نداء المستغيثين من غرناطة وتوفي أبو سعيد عثمان سنة 731 هـ .

بعد وفاة أبي سعيد عثمان خلفه ابنه أبو الحسن علي بن عثمان الذي امتلك تلمسان سنة 737 هـ كما استولى على تونس سنة 748 هـ وصار ملكه من

²³ مجهول : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، ص 176 ؛ ابن أبي زرع الفاسي : روض القرطاس ، ص ص 321 - 323 .

²⁴ مجهول : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، ص 177 .

²⁵ ؛ ابن أبي زرع الفاسي : روض القرطاس ، ص 373 وما بعدها ؛ السلوي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص 65 .

²⁶ ابن أبي زرع الفاسي : روض القرطاس ، ص 374 وما بعدها .

²⁷ مجهول : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، ص 177 .

برقة إلى السوس وصارت سطوة المرينيين جليّة على المغربين الأوسط والأدنى خاصة في عهد ابنه أبي عنان بن أبي الحسن الذي استولى كذلك على قسنطينة وبجاية ، وبعد هذا السلطان تولى دولة بني مرين سلاطين ضعفاء ففقد المرينيون المغرب الأدنى ثم الأوسط كما استولى البرتغاليون على سبتة سنة 818 هـ وهكذا بدأت تنهار دولة بني مرين فاستولى البرتغاليون على جزء كبير من ساحل المغرب مثل أصيلا (876 هـ) وازمور وطنجة (869 هـ) ، وبهذا تقلصت جغرافية بني مرين واكتفت بفاس بعد أن خرجت مراكش وتافيلالت والسوس والريف عن طاعتهم ، ولم تلبث دولة المرينيين أن سقطت على أيدي الأشراف السعديين بسقوط مدينة فاس في أيديهم (956هـ)²⁸ .

²⁸ عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ص 871 - 872